فن الذكر والدعاء عن خاتم الأنبياء

مجاهدة العيش

الشيخ/ محمد الغزالي

يخرج المسلم من بيته ليباشر العمل الذي يؤويه، إن كان موظفًا فإلى مكتبه، وإن كان عاملًا فإلى مصنعه، وإن كان تاجرًا فإلى دكانه، وإن كان فلاحًا فإلى حقله. والناس يغدون إلى أعمالهم، وشئون الرزق مستولية على أعصابهم، مستحوذة على أفكارهم، إنهم يريدون الكثير لأنفسهم وأهليهم، المُقل يريد سَعَة، والموسع يريد مزيدًا، ومآرب الحياة لا تقف عند حد، والقوى المبذولة وراءها تستنفد الطاقة. تُرى كم تستهلكه هذه الساحة من جهود البشر؟! كأن صاحب الرسالة الخاتمة كان يستحضر هذه المشاعر، وهو يناجي ربه عندما يخرج من بيته يقول: «باسم الله، توكلت على الله، اللهم إني أعوذ بك من أن أزل أو أُزل، أو أضل أو أُضل، أو أظلم أو أُظلم، أو أجهل أو يُجهل عليَّ . . »[1].

إنه لا يريد غلبًا على أحد، إنه يريد النجاة من الزلل يقع فيه أو يوقع أحدًا فيه، إنه يبغي الهدى لنفسه ولغيره، إنه يستعيذ بالله أن يجهل على أحد أو يجهل عليه طاغ مفتون، إنه يكره الظلم في صوره كلها، بذلك يدعو ربه، ويستمد منه العون، وقد طلب الرسول من كل مسلم عندما يغدو من بيته لما يهمه من شأنه أن يوثق رباطه بربه، فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قال -يعني إذا خرج من بيته-: بسم الله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، يُقال له: هُديت، وكُفيت، ووُقيت . . . »[2]. إن مخالطة الناس تُعرِّض المرء لمشكلات جمة، وقد يتولد من الاحتكاك شر حارق، واليقظة العقلية مهما كانت حادة لا تُغني عن حماية الله، وهو- سبحانه- يقي مَن اعتمد عليه ولاذ به، بل ينبغي للمسلم أن يتهم قواه الذاتية، وأن يرمق باستعطاف العون الأعلى، قائلًا كما علَّمه نبيُّه: «اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلًا، وأنت إذا شئت تجعل الحزن -الصعب- سهلًا» (صحيح ابن حبان). وعندما تضطرب أحوال العيش، وتبرز صعوبات مُقلقة، يزداد تشبثه بربه، فعن ابن عمر عن النبي -عليه الصلاة والسلام-: «ما يمنع أحدكم، إذا عَسُر عليه أمر معيشته، أن يقول إذا خرج من بيته: بسم الله على نفسي ومالي وديني، اللهم رَضِّني بقضائك، وبارك فيما قُدّر لي، حتى لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت» (الدعاء للطبراني). سبحان الله؛ أي علم بالنفس البشرية ومتاعبها كان عند هذا الرسول؟ وأي خزائن ملأى باليقين كان يمنح منها هذا وذاك ليستبقي العلاقة بالله ثابتة هادئة؟! عن البراء بن عازب قال: أتى رسول الله رجل يشكو إليه الوَحشة، فقال له رسول الله ﷺ: «أكثِر من أن تقول: سبحان

(١) أخرجه أبوداود (٥٠٩٤)، والترمذي (٣٤٢٧) من حديث أم سلمة -رضى الله عنها- وقال: «حسن صحيح».
(٢) سنن أبي داود وأخرجه الترمذي (٣٤٢٦) وقال: حسن غريب.. وصححه ابن حبان (٨٢٢).

الملك القدوس، رب الملائكة والروح، جلَّلت السماوات والأرض بالعزة والجبروت». فقالها الرجل، فذهبت عنه الوحشة. (المعجم الكبير للطبراني)، هذا رجل من أولي الحساسية الذين يجنحون إلى العزلة، ويتطيرون من الخلائق، لعله من النوع الذي يقول:

وإن امرءًا يُمسي ويصبح سالمًا
من الناس - إلا ما جنى - لسعيد

لكن الحياة لا تتطامن لهؤلاء وترضيهم، فهم منها على وجل، وما تنقضي حاجتهم إليها، وقد ذهب يشكو إلى الرسول هذا الاستيحاش المعنت، فنصحه بذلك الدعاء، الذي يدفعه دفعًا إلى الأنس بالله. على أن النبي -عليه الصلاة والسلام- يكره تحول الوحشة إلى عجز، أو أن يكون ذكر الله ستارًا لهزيمة نفسية لا تليق، عن عوف بن مالك قال: قضى رسول الله -عليه الصلاة والسلام- بين رجلين، فقال المقضي عليه لمّا أدبر: حسبي الله ونعم الوكيل.. فقال رسول الله: «إن الله تعالى يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس ـ بالعقل والعزم والمثابرة ـ فإذا غلبك أمرٌ فقل: حسبي الله ونعم الوكيل» (مسند أحمد). إن البصر الثاقب لم تفته حالة الرجل المحكوم عليه، لقد ملكه الفشل فولي يستر ضعفه واستسلامه بهذه الكلمة: حسبي الله ونعم الوكيل، إنها هنا كلمة حق أريد بها باطل. عندما قال هذه الكلمة الذين هُزموا بالأمس في أُحُد، ثم أصبحوا يتحاملون على جراحهم، ويحشدون آخر ما لديهم من وسع ليثأروا من مشركي مكة لم يضعفوا، نعم لما قيل لهم:

﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾

(آل عمران: ١٧٣)

قالوا: ليبارك الله في عزمهم وبذلهم واستئنافهم لجهاد المبطلين. للكلمة هنا معناها المحبوب المقبول. وما يجوز أن تُقال الكلمة تسليمًا بالأمر الواقع، وتقاعسًا عن تغييره، وانتظارًا من السماء أن تدافع عمن لا يدافع عن نفسه. لا بد لضمان السماء من سعي، لا بد للأمل من عمل، من أجل ذلك قال عمر: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ثم يقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة.

على أن الحياة المعاصرة لا تشكو من متوكلين لا يعملون، وإنما تشكو من عاملين لا يتوكلون، فإن الصبغة المادية سادت القارات المعمورة، والناس يغدون من بيوتهم وهم يتلهفون على صيد ثمين ينقضون عليه، وإذا أمكنتهم الفرص من مأرب سال لُعابهم لآخره؟ إنهم يأكلون ولا يشبعون، ويشربون ولا يرتوون. وفي هذه الحمى لا تعلق للقلب إلا بالمزيد من الحُطام، فإذا حدث أن استعصى رجل على هذا المنحدر، وتراجعت إلى فؤاده خصائصه العليا، واستبان وجه ربه وسط ركامٍ من ضباب الأهواء، فذكر اسمه، ووحيه، وتشبث بآياته وتوجيهاته، فأي ثواب يكون له؟! قال رسول الله ﷺ: «مَن دخل السوق فقال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحي ويميت، وهو حيٌّ لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة»[٣]. إن هذا الأجر الجزل ليس لألفاظ تمرق من الشفاه، إنها لحال من الثقة في الوجود الأعلى، والفضل الأعلى، تجعل الرجل يركن إلى مَن بيده الخير، فلا يحتال، ولا يغتال. وقد أكد الأئمة أن هذه الأجور الكبيرة لا تُوضع بإزاء الأعمال الصغيرة، ولا الهمم الصغيرة. وفي ميدان الارتزاق والكدح للنفس والولدان، قد يختلط الطيب والخبيث والنقي والمغشوش، والمسلم يعلم أنه لا يدخل الجنة لحم نَبَت على سُحت، وأن الله طيبٌ لا يقبل

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٥٣٩/١ من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما- وقال: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

إلا طيبًا، ومن ثَم وجب على المؤمن أن يتحرى، وقد علّمنا الرسول -عليه الصلاة والسلام- هذا الدعاء: «اللهم اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عمن سواك»(٤).

«اللهم إني أسألك علمًا نافعًا، ورزقًا طيبًا، وعملًا متقبلًا»(٥).

وفي زحام الدنيا ربما تعرض المرء لما يسوؤه، وربما استفزه السفهاء ليجهل عليهم، أو ليثأر لنفسه منهم، وخير له إذا خرج من بيته أن يضمر التجاوز والسماحة. روى أنس بن مالك أن رسول الله قال: «أيَعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم؟» قالوا: ومَن أبو ضمضم يا رسول الله؟ قال: «كان إذا أصبح قال: اللهم إني قد وهبت نفسي وعرضي لك، فلا يشتم من شتمه، ولا يظلم مَن ظلمه، ولا يضرب من ضربه»!(٦).

وزحام الدنيا غاصٌّ بالمثيرات النفسية والاجتماعية، والإقبال عليها ناشب بأعماق النفس، والأمر يحتاج إلى أن نشرح موقف الأنبياء منها، تمهيدًا لإيضاح موقف النبي الخاتم -عليه الصلاة والسلام-.

الأنبياء بشر أمثالنا، ومناصبهم العالية لا تُسقط عنهم مشاق التكاليف، ولا تُريحهم من أعباء الواجبات المفروضة، بل الصحيح أنهم أشد بلاء، وأكثر عناء، وذاك معنى قول العلماء: العصمة لا تمنع المحنة، أي لا تمنع الاختبار، وضروب التمحيص. كان يوسف بشرًا يضيق بالسجن ويتشوق للحرية، يوم قال للسجين الذي يتوقع الإفراج عنه: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾.. ولِمَ لا يذكره، وهو بريء مظلوم؟ وهذا السجين الخارج يعرف عن يوسف أنه من الصالحين المحسنين، فليحدث عنه الملك الذي سيعمل معه، وشاء الله أن ينسى السجين الخارج، وأن يبقى يوسف بضع سنين. حتى جاء اليوم المقدور، وأرسل الملك إلى يوسف يستقدمه، ولكن يوسف كان قد بلغ حدًّا من الاكتمال والتأني جعله يتريث في الاستجابة ويقول: أولًا اعرفوا موقفي من القضية التي اتُّهمت فيها، ثم خرج يوسف ليتولى شئون المال في مصر.

وكان موسى بشرًا يحس لذع الغربة في أرض مدين، فلما سقى للفتاتين أوى إلى الظل وناجى ربه:

﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾

(القصص: ٢٤)

وجاءه الغوث إذ وجد المأمن المنشود، عند سيد مدين الذي قال له:

﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

(القصص: ٢٥)

ثم تزوّج ابنته، وعاش في صحبته، وتهيأ للرسالة الضخمة.

وكان لوط بشرًا عندما داخله الحرج الشديد، لمّا رأى المجرمين من قومه ينظرون بخفة وشر إلى وفد الملائكة عنده! لقد تمنى لو كان ذا عصبية يؤدب بها السفلة، حتى طمأنته الملائكة أن مصير القوم يقترب.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾

(القمر: ٣٨، ٣٩)

إن تعليق النبي الخاتم على بعض ما سقنا من قصص يُنبئ عن جانب من أخلاقه. يقول عن لوط: «رحم الله لوطًا، كان يأوي إلى ركن شديد»(٧).

---

(٤) رواه الترمذي (٣٥٦٣) من حديث علي -رضي الله عنه- وقال: «حسن غريب».

(٥) رواه ابن ماجه (٩٢٥) من حديث أم سلمة؛ قال البوصيري في المصباح(١/١١٤): «رجاله ثقات خلا مولى أم سلمة؛ فإنه لم يسم، ولم أر أحدًا ممن صنف في المبهمات ذكره».

(٦) مكارم الأخلاق للطبراني وله شاهد من حديث عبد الرحمن بن عجلان، قال أبو داود (٤٨٨٧): «وهو أصح».

(٧) رواه البخاري (٣٣٧٢، ٣٣٨٧، ٤٦٩٤)، ومسلم (١٥١) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

يعني أن الله ما كان ليتركه، وما كان له أن يأسي على عصبية مفقودة. والواقع أن إحساس محمد بالله وتأييده لا نظير له، ولقد سُمي (المتوكل) لهذه الخلة البارزة. إن هذا الاعتماد الفذ على الله هو الذي أمده بالقوة على نشر عقيدته، وتبليغ رسالته في عالم كل شبر منه يتنكر له، وأول مَن صرخ في وجهه يتهدده عمه أبو لهب؟ ما كانت توجد ذرة من أمل في نجاح هذه الدعوة لولا أن صاحبها استند إلى الله، ومضى إلى غايته، لا يثنيه شيء. وتعليقه على كلمة لوط الذي يوحي بالقوة والثقة غير تعليقه على كلمة يوسف الذي يوحي بالتواضع وهضم النفس إنه يقول: «لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»[٨]، أي لاستعجلت الفرج، وتركت السجن، غير منتظر سؤال النسوة وجوابهن المعروف. إنه هنا -مع تواضعه البادي- يقرر الطبيعة الإنسانية في التلهف على الحرية، وكره عالم السدود والقيود.

والذي نخلص منه بعد هذا التقديم أن الأنبياء تهزهم المشاعر الفطرية التي تهز جمهرة البشر، وأنهم عندما يقدمون في مواطن الوغى لا يأخذون أمانًا من الموت، وعندما يبذلون المال لا يأخذون ضمانًا من الفقر، إن أخلاقهم العلا تكلفهم كل مغارم العظمة التي يدفعها الآخرون. ويبقى بعد ذلك تفرد المرسلين بأن أوجههم الذي يعيشون فيه لا يسمح لهم أبدًا بالتدني، فهم أزكى مكانًا، وأسنى منالا. ونتساءل بعدئذ عن علاقة محمد -عليه الصلاة والسلام- بالدنيا؟ أكان يحبها أم يعافها؟. ونجيب: إنه كان يعرف الدنيا معرفة الخبير، ويتذوقها تذوق المعافى السليم، بيد أنه كان مشغولًا عنها بما هو أعظم وأشرف. إن المجد الإلهي استغرقه، فجعل في الصلاة قرة عينه، وفي الصيام مسرح روحه، وفيما عند الله شغلٌ عن كل جاه يسعى إليه طلاب الجاه، وقد فرض هذا النمط من الحياة على زوجاته، وأفهمهن أن طالبات الدنيا لا مكان لهن عنده:

﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾

(الأحزاب: ٢٨)

ولكنهن شُغلن بما عناه، واجتهدن أن يرتفعن إلى مستواه، من الذكر والعبادة وطول الإقبال على الله. عن جويرية أم المؤمنين -رضي الله عنها- أن النبي خرج من عندها بكرة، حين صلى الصبح، وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى، وهي جالسة فيه، فقال: «ما زلت اليوم على الحالة التي فارقتك عليها»؟ـ من اعتكاف وتعبد ـ قالت: نعم!. فقال النبي -عليه الصلاة والسلام-: «لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، لو وُزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومِداد كلماته»[٩].

وعن أبي هريرة، قال رسول الله -عليه الصلاة والسلام-: «لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس» (صحيح مسلم). إن سعادته، وهو يردد هذه الكلمات، ويستحلي معانيها، أشهى لديه من امتلاك كل ما أضاءه النهار في دنيا الناس. وهب أنه مَلَكَ القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ما عساه يفعل بها؟ لقد قال: إنه لو كان لديه مثل جبل أحد ذهبًا ما مرت عليه ثلاث ليال وعنده شيء منه. كان سيفرقه في حاجات الفقراء، ولو بقي شيء لرصده لعوارض المسغبة والبأساء التي تطرأ على الناس. ولقد كان يملك الوادي من الشاء والنعم فلا تغيب الشمس إلا وهو في أيدي العفاة، إن حبه كان لشيء آخر: لله، لكتابه، لمناجاته، لمرضاته. واسمع إليه يشرح مشاعره نحو القرآن العظيم: «اللهم إني عبدك، وابن

(٨) رواه البخاري (٣٣٧٢، ٤٦٩٤) ومسلم (١٥١) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٩) مسند الحميدي وأخرجه مسلم (٢٧٢٦).

عبدك، وابن أمتك، وفي قبضتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حُكمك، عَدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في مكنون الغيب عندك، أن تجعل القرآن الكريم ربيع قلبي، وضياء بصري، وذهاب حزني، وجلاء همي وغمي» (عمل اليوم والليلة لابن السني). إن الوحي أساسه، فكيف لا يكون أنيسه الدائم؟ كان في سفره يقطع المفاوز وهو به يصلي، وفي إقامته كان وعيه نسيجًا من معانيه. وجاء أنه طلب من الصحابي الكبير عبد الله بن مسعود أن يقرأ عليه القرآن!! فقال ابن مسعود: أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ فقال -عليه الصلاة والسلام-: «إني أحب أن أسمعه من غيري». ويقرأ عبد الله من أول سورة النساء حتى يصل إلى قوله -سبحانه-:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (النساء: ٤١)

والتفتُّ إلى الرسول -عليه الصلاة والسلام-، فإذا عيناه تذرفان، قال له: «حسبك..» (مسند الحميدي). ويواصل الصيام، فلا يفطر مع الغروب، ويحاول بعض صحبه أن يقلده فيقول لهم الرسول مانعًا: «إنكم لستم كهيئتي، إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»(١٠).

إن تبتله إلى الله أحدث تغييرًا عضويًّا في كيانه البشري، وجعله يتقلل تقللًا خطيرًا من الطعام والشراب؛ لأنه يحيا في ملكوت آخر، ومع هذا البُعد الروحاني الساحق فقد كان يعيش بين الناس خبيرًا بطباعهم، شاعرًا بقضاياهم، يبيت فيها باسم الله، فما ينحرف قيد أُنملة عن الصراط المستقيم. هل يمكن أن يكون موقفنا نحن من الدنيا على هذا الغرار؟ لا، ما نستطيع ولا كُلفنا.

إن بعض الفقراء والزهاد والمتصوفة حاول أن يخاصم الدنيا، ويعيش على هامشها، وأن يتشبه برسل الله في سيرتهم المترفعة، وهيهات!. إن حمرة الخجل لا تصنعها بعض المساحيق المجلوبة، والأزهار الصناعية قد يكون بها شبه من الأزهار الطبيعية، بل لعلها أبقى على الأيام. لكن أين عُصارة الحياة، ونعومة الملمس، ونفح الرائحة الذاتية؟. ربما نام ناس على الحصير فانطبعت عيدانه في جلودهم، هل يمنحهم ذلك شبهًا بالرسول الذي رمق الدنيا بنظرة غائبة لأن فؤاده حاضر مع ربه، يقظان في حضرته، مستغرق في شهوده؟ إن الرجل لا يكون قائدًا لأنه عثر على بدلة قائد فلبسها.

إن لجمهور الناس موقفًا من الدنيا شرحه الرسول لهم، نحب أن يعرفوه، وحسبهم شرفًا أن يلتزموه؛ كان لقارون دنيا عريضة وثراء يشد إليه العيون، وكان عشاق الحياة ينظرون إليه ويقولون: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ (القصص: ٧٩)

ولم يطلب الله من قارون تطليق هذه الدنيا، لقد طلب إليه أمورًا تُعد على الأصابع. مَن مَوّلك وكان يمكن أن تحيا صعلوكا؟. إنه الله. إذن انظر إلى مالك وقل: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله. بيد أن المغرور قال: عبقريتي هي سر غناي.. ولو فرضنا جدلًا أن هذا القول صحيح، فمَن الذي مَنحك الذكاء والمضاء؟ إنه الله، ولكن الغافل لا يحس. إن الله عندما يعطي يطلب الاعتراف بعطائه، فهل هذا تكليف صعب؟! وهو يطلب من آخذ فضله أن يرحم ولا يقسو، وأن يعتدل ولا يطغى، وأن يصلح ولا يفسد، وقد قال لقارون:

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ (القصص: ٧٧)

(١٠) رواه البخاري (١٩٢٢) ومسلم (١١٠٢) من حديث عبد الله بن عمر، والبخاري (١٩٦٣، ١٩٦٧) من حديث أبي سعيد الخدري، والبخاري (١٩٦٤) ومسلم (١١٠٥) من حديث عائشة -رضي الله عنها-.

ولكن المؤسف أن ناسًا كثيرين يمنحهم الله الدنيا فيذكرون أنفسهم ولا يكترثون بغيرهم، ويضاعفون متعهم على حساب الجياع، ويعصف بأحلامهم الغرور فينظرون إلى الناس من فوق. وقد حذر الله عباده المؤمنين من هذا الطيش، وقال لهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (المنافقون: ٩، ١٠)

وفي السيرة الشريفة حثٌّ موصول على الصدقة، وزجرٌ شديد عن الشُّح، وقد ثبت أن الفلسفات الكافرة التي أغوت الجماهير ما نبتت ولا نمت إلا في بيئات الكنزازة والقسوة، والأثرة العمياء. مع مطلع كل صبح، ومع انطلاق الأحياء في فجاج الأرض يحصلون ويؤثلون، يذكر النبي للناس هذه الحقائق؛ عن أبي هريرة أن رسول الله -عليه الصلاة والسلام- قال: «ما من يوم يصبح فيه العباد إلا وملكان ينزلان يقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا» (صحيح البخاري)، وفي حديث قدسي: «عبدي أنْفق أُنفق عليك، يد الله ملأى لا تغيضها نفقة، سَحَّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؟ فإنه لم يَغِضْ ما في يده..»[11].

وقد بيّن النبي -عليه الصلاة والسلام- أن النفقة لا تُقبل إلا إذا كانت من كسب طيب، وأن الله كلف الرسل خاصة، والناس عامة أن يتحروا في معايشهم الحلال وحده، فقال للأوّلين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ (المؤمنون: ٥١)

وقال للآخرين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٢)

ونشأ عن هذه التعاليم مجتمع يحنو أغنياؤه على ضعفائه، ويبرءون من عبادة المال، ويرفضون مصادره المريبة، وكانت سيرة الرسول أمامهم شعاعًا هاديًا؛ فإن الرسول بإزاء الدنيا والمال كان يجمع بين منقبتي الغني الشاكر، والفقير الصابر، نعم فقد كان ذا مال:

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ (الضحى: ٨)

وكان غناه من تجارته الرابحة في مال زوجه خديجة أيام شبابه، ثم كانت أنصبته من الخمس والفيء شيئًا طائلًا، لكنه لم يستحوذ على شيء من هذا كله، بل كان يضعه في حاجات الفقراء، وربما ظل يُعطي، وظل أهل بيته كذلك حتى يستنفد العطاء كل ما لديهم، فيمسون وليس لديهم ما يُغني من جوع.

والمعروف في سيرته -عليه الصلاة والسلام- أنه -وهو في مرض الموت- أهمته ذهيبة كانت عنده فما استراح حتى وُزعت على الفقراء، وتساءل: كيف يلقى الله، وهي عنده؟! والمعروف كذلك أن أملاكه ليست ميراثًا لأهله وأقاربه، لقد وُزعت هي الأخرى في سبيل الله. لقد كان يدعو: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا» -كفافا-[12]، فلما آثر الرفيق الأعلى، كان قبل أن يصل إلى السماء أشبه بسكان السماء، ترفعًا عن مطالب الأرض، وزينات الدنيا.

(١١) رواه البخاري (٤٦٨٤، ٧٤١١)، ومسلم (٩٩٣)من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-.
(١٢) رواه البخاري (٦٤٦٠) ومسلم (١٠٥٥)؛ من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.